

أناتول فرانس

بلغ أناتول فرانس في حياته أسمى ما يمكن أن يبلغه كاتب عبقرى ، فوصل اسمه إلى أقصى البلاد ، وترجمت مؤلفاته إلى كل اللغات الحية وكثير غيرها ، وطبعت كتبه مئات الطبعات ، ونال من الجوائز والمراتب أرفعها شأنًا وأعلاها ذكرًا مما تتقطع دونه أعناق أعظم الكتاب . فمنذ خط طريقه إلى عالم الآداب منح وسام اللجيون دونور في ٣١ ديسمبر عام ١٨٨٤ ، وفي عام ١٨٩٦ انتخب عضواً في الأكاديمية فرانسيز ، وفي عام ١٩٢٠ منح جائزة نوبل للآداب وحصل بذلك على ما يقرب من خمسة عشر ألفاً من الجنيهات فتبرع بها كلها لأهل روسيا أيام المجاعة التي ألمت بها في سنى الثورة العصبية الأولى .

على أن أناتول فرانس لم يكبد يفارق حياته الحافلة عام ١٩٢٤ حتى برز له النقد يحاسبونه حساباً عسيراً ، ينهشون أعماله ويحللون ويناقشون أفكاره ، فانتهى الكثير منهم إلى أن أناتول فرانس قد نال في حياته من المجد أكثر مما يستحق بكثير ! واتهموه بأنه كان على نقیض ما أراد أن ينشره حول اسمه ونجح فيه بفضل (ادعائه ودجله) على حد تعبير البعض منهم ! فقد أراد أن يظهر بمظهر

الرجل الذي ساء إلى هذا العالم ليغرس الرحمة في قلوب البشر المتحجرة ولكنه كان في نظرهم أبعد الناس عن الرحمة والثناء للضعفاء والمساكين ، قالوا : كيف يمكن أن يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً وهو الرجل الذي سخر حياته للسخرية من صرعى الحياة ، رجل جاء إلى هذا العالم ليستمتع بأكبر لذة مستطاعة وليسخر من أكبر عدد ممكن من الناس ، كيف يفهم آلام الغير ويحس بأوجاع المتألمين إنسان لم يشعر بالآلم الحقيقي مرة واحدة في حياته الطويلة لأنه كان يكره الآلم ويحتقر المتألمين فيطير من وجوههم فراراً إلى سماء اللذات ومتع الحياة !

والمعروف أن أناطول فرانس كان في كتاباته وأقواله ديموقراطياً بل اشتراكياً متطرفاً ، ولكم سخر منه في ذلك أيضاً فريق ناقديه ، ألم يهزأ بالثورات ورجالها في قصته (الآلهة ظمأى) ؟ ! ألم يعتبر الديموقراطية وحكم الشعوب طعنة للفكر الإنساني والثقافة العليا ؟ ! ولقد أضاف النقاد إلى ماسبق فاعتبروا أناطول فرانس « لصاً بارعاً » سرق كل ما جاء به من الأفكار من آداب وفلسفة الرومان والأغريق على الخصوص ، ولقد بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتباره (مفكراً من الدرجة الثانية) . أما الكاتب العظيم أندريه جيد فقد قال عنه (كان يمكن أن يفيض حيلاً أناطول فرانس أكثر مما هو الآن لولا أن عدداً من قليلي التبصر والدراية أرادوا أن يجعلوا

منه كاتباً ممتازاً ... إن قيمة الكاتب كما يقول ستندال هي في قدرته على هز قارئه وأنا حين أقرأ أنا تول فرانس لا أشعر مطلقاً بأقل اهتزاز)

ولسنا نود أن نذكر شيئاً من التحقير والتشهير الذي وجهه إلى أدبه جماعة (ما وراء الحقيقة) Surrealistes لأنه يتعدى حد النقد المعتدل البريء .

على أن أنا تول فرانس لم يحرم من يدافعون عنه ويردون على كل نقد وجهه إلى (الأستاذ الأعظم) كما يسميه الفرنسيون حتى اعتبره ميشيل كورداي في كتابه عنه (نصف إله) .

إن المرء ليشعر بالحيرة حين يقف وسط عواصف هذه الآراء المتضاربة . على أننا سنحاول أن نتجرد من التأثير برأى كل من الفريقين ثم ننظر إلى أنا تول فرانس كما كان هو ينظر إلى الناس . لننظر إليه متعالين متكبرين لأن التعالي والكبرياء كما يقول ينفعان في الحكم على الأمور دون التأثير بتحيز عدو أو الخضوع لمحاباة صديق . لنحكم عليه من خلال أعماله المجردة ولنستعن إلى جانب ذلك بخلاصة صرخات النقاد طوال السنين التي انقضت على وفاته من أصدقاء وأعداء على السواء .

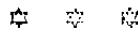
ولد أنا تول فرانس في باريس في اليوم السادس عشر من

ابريل عام ١٨٤٤ . وكان والده — ويدعى فرانسوا نويل تيبو — بائع كتب ، فنشأ بين تلال المؤلفات العديدة المتنوعة يقلب فيها بغريزة الطفل المتطلع لمعرفة كل شيء دون أن يدري كنهها وقيمتها ، فلما شب قليلا وابتدأ يشعر بقيمة الجو المحيط به شرع ينهل من ثروة الأفكار وتراث العقول بجشع غريب ، وابتدأت تتفتح أمامه أبواب المعرفة والخبرة النظرية يستمدّها من ثنايا الأسفار .

على أن أحوال حياته العائلية قد أعانته أيضا أكثر من غيره على استكمال الخبرة العملية بالحياة ، فلقد عرفنا الآن أن أناتول فرانس ابن بائع كتب فكان طبيعيا أن يقضى الصبي أناتول معظم يومه في الشوارع والطرق بين أمثاله من الصغار ، لذلك كانت طفولته أقرب إلى التشرّد والاضطراب منها إلى الهدوء والاستقرار الذي تخلقه الحياة المنزلية الوداعة ، ولقد ساعدته حساسيته الممتازة على التأثر بهذه الحياة وإجادة فهمها واكتساب كثير من التجارب من (مدرسة الشارع) كما يقول ، وقد ظهر كل ذلك واضحا في قصته (كرانكابل) Craincaille . وعندما شب أناتول فرانس اشتغل مساعداً لآبيه يخالط صنوف الناس ويرى مختلف الوجوه ، ما يحبها وما يكرهها ، فعرف من ألوان الحياة كثيراً مما لا يعرفه الكثيرون . وكان أناتول فرانس يعتز إلى جانب هذا وذاك بباريسيته الصميمة ويظهر أنه كان يعلق بها شأناً خاصاً في توجيه تفكيره

وتلوين أدبه وطبعهما بالطابع الخاص الذى كان يمتاز به ، وهذا هو
ما دعاه لأن يقول فى (كتاب صديق) Le livre de mon ami
هذه العبارة القصيرة التى تضم روح الاعتزاز والفخار (إنى باريسى
بكل نفسى وبكل جسمى) .

فلكى ندرس أنا تول فرانس وتفكيره وروحه يجب أن نضع
أمام أعيننا هذه الحقائق الثلاث : باريسى صميم — ابن بائع كتب —
طفولة متشردة .



لم يكن أنا تول فرانس طالبا مجدا وكان اهتمامه بقراءة الأدب
وبناء آمال أدبية أكثر من اهتمامه بتحصيل دروسه المدرسية ، بل
إنه كان يعتبر أن حياة المدرسة ودروسها كانت حائلا بينه وبين العلم
الحقيقى إذ يقول : (إننى لم أبتدىء فى التعلم إلا عند ما انقطعت
عن الدراسة المدرسية) .

وكان أنا تول فرانس طول حياته المدرسية فتأ مشاغبا دائماً
السخيرية من أساتذته ، ومجموعة ذكريات حياته التى كتبها فيما بعد
حافلة بالشخصيات التى تمثل أساتذته أيام الدراسة مصورة بروح
ساخرة ماجنة !

وكانت والدته أنا تول فرانس كسائر الأمهات تؤمن إيماناً
صادقاً بأن ولدها سيصادف النجاح فى جميع مراحل حياته ، أما

والده فكان على الضد شديد الخوف على مصير ولده . وإنك لتشعر
بما كان يساوره من خطاب كتيبه عام ١٨٦٨ ، وكان أنا تول فرانس
في الرابعة والعشرين ، قال فيه (إن ولدى لا يتبع نصائحي فهو
لا يزال دون عمل ، إنه يكتب ، بل يجب أن أقول إنه يكتب
بأسلوبه الرديء يشوه به الصفحات ^(١) . إن ما كنت أختشاه منذ
صغره قد شاء القدر أن يتحقق الآن . لقد عيل صبرى في مقاومته
فهل سيكون من الفطنة والذكاء بحيث يستطيع أن يعول نفسه ؟
والأسفاه !)

والواقع أن أنا تول فرانس لم يقبل أن ينتظم في عمل من
الأعمال يحقق به رجاء والديه ، بل ظل يقاوم مشيئتهما بعناد ، مثابراً
على إعداد نفسه لمجد مستقبل حتى بلغه بعد جهد جهيد .

نعم بعد جهد جهيد . فقد كان الدور التحضيرى لمجده الأدبى
طويلاً مملأ ، إذ قضى سنين طويلة يعمل فى مكتبة أبيه ، وكان
ينشر بين حين وآخر مؤلفات راسين وموليير وغيرهما بعد أن
يعاق عليها بشروح لا تخاو من فائدة ، وكان يشتغل فى ذلك الوقت
أيضاً بكتابة دراسات تاريخية وأدبية نقدية كانت أولها رسالة
عن الشاعر الفريد دوغيني (١٨٦٨) ثم ابتداءً يخوض غمار الشعر

(١) سبرى نقارىء فيما بعد أن النقاد يجمعون على أن أنا تول فرانس خير من
كتب الفرنسية منذ الثورة الفرنسية إلى الآن .

فنظم عدداً من المقطوعات جمعت في مجموعتين ، الأولى بعنوان (القصائد الذهبية) Les poèmes dorés (١٨٧٣) والثانية بعنوان (الأعراس) Noces Corinthiennes (١٨٧٦) ، وكانت جميع هذه الأعمال بإجماع النقاد خالية من التفكير النير والذهن الصافي فلم ترفع ذكر مؤلفها . وفي عام ١٨٧٩ نشر أناتول فرانس قصتين كانتا أولى محاولاته في التأليف القصصى وهما (چوكاست والقطعة النحيلة) Jocaste et le chat maigre . فلم تسترعيأ إليهما إلا نظار . وفي عام ١٨٨١ نشر (جريمة سيلفستتر بونار) Le crime de Sylvestre Bonnard فخرج اسمه مرة واحدة من الظلمة إلى النور . وتوالت بعد هذه القصة أعماله الأدبية فكتب قصة (رغبات جان سرفيان) Les désirs de Jean Servien و (كتاب صديقي) Le livre de mon ami (١٨٨٥) وهو الكتاب الأول من كتبه الأربعة التي ضمنها ذكريات حياته . ثم كتب Balthazar و (تاييس) Thais (١٨٩٠) و L'étui de nacre و (آراء چيروم كوانيار) Opinions de Gêrôme Coignard و (مطبخ المملكة بيدوك) La rôtisserie de la reine Pédauque ^(١) و (الزنبقة الحمراء)

(١) يكاد يجمع النقاد أن قصته (مطبخ الملكة بيدوك) هي خير قصصه على أن هذا الرأي لا يتفق ورأى أناتول فرانس نفسه . إذ يقول (إذا أعدت كتابة كل قصصى فإن القصة الوحيدة التي أعيددها كما هي كلمة بكلمة هي قصة (Histoire comique) فهي في نظره خير قصصه .

Lys rouge و (حديقة إبيقور) Gardin d' Epicure و (آبار
سانت كاير) Puits de Sainte Claire (١٨٩٥)

ومن عام ١٨٨٨ إلى عام ١٨٩٢ كان أناتول فرانس يتولى تحرير
قسم النقد الأدبي بجريدة الطان بعنوان الحياة الأدبية Vie littéraire
إلى ذلك الوقت كان نشاط أناتول فرانس قاصراً على فننه
الأدبي حتى كانت حادثة دريفوس الشهيرة فجذبته إلى غمار السياسة
ووقف معارضا لدردا لتليذه شارل موراس . وكانت هذه الحادثة
دافعة له على كتابة مجلداته الأربعة في (التاريخ المعاصر)
Histoire contemporaine وهي Le mannequin d'osier و
L'orme du mail و L'anneau d' Améthyste و M. Bergeret à Paris
وفي أثناء هذه المدة ظهرت قصته Clio و Pierre Nosière
وهو الكتاب الثاني من ذكرياته .

ومضى أناتول فرانس يوالى إنتاجه القصصى وهو يسعى جهده
في أن يغير طابع أعماله الأدبية من قصص تشرح أفكاره الفلسفية
ونظراته العامة إلى أخرى تغطي فيها روحه الساخرة ونفسه
الممرحة فكتب في هذه الفترة من حياته من النوع الأول قصصه
Sur la Pierre blanche و L'île des pingouins و Vers les temps
meilleurs ومن النوع الثاني Les sept femmes de barbe-bleue
و Histoire comique و Les contes de Jacques Tournebroche

وفي عام ١٩٠٨ نشر أناتول فرانس كتابه (حياة جان دارك)
 Vie de Jeanne d'Arc الذي حاول به أن يخرج عن طريقته في
معالجة التاريخ كقصاص إلى معالجته كمؤرخ ولكن النقد يكادون
يجمعون على أن أناتول فرانس قد أخفق في تحقيق ما تمنى .

وفي عام ١٩١٢ نشر أناتول فرانس قصته (الآلهة ظمأى) Les
Dieux ont soif ثم ظهرت قصة (ثورة الملائكة) La révolte des
anges وبكتابه Le petit pierre و La vie en fleur أتم أناتول
فرانس كتبه الأربعة عن ذكريات حياته . وقد ذكر في ختام كتابه
الآخر La vie en fleur أن هذه الذكريات صادقة (من حيث
الوقائع الرئيسية والأخلاق والعادات) وأن التغيير الذي حدث
بمحصر فقط في تغيير الأسماء وأحوال معظم أشخاصها .

تفتحت عينا أناتول فرانس منذ طفولته على مناظر السين
ومياهه الجارية (كما تجري صور الحياة في هذا العالم كل منها يمر
ولا يبقى شيء) وكان غرامه النادر بالكتب والدرس الممتزج
بروحه الشاعر يجعله يهيم بأرصفة نهر السين (القديمة الحزينة —
كما يقول — تلك الجهات المختارة من رجال الفكر والفن الجميل ،
أجمل مكان في العالم ، حيث تجتمع الأشجار والكتب وتمر النساء
أمام العيون) وكانت نفسه الفنانة تدفعه إلى طول التأمل في (اللوفر)

و (كنيسة نوتردام) وغيرهما من آثار قرون المجد السالفة ، تلك الآثار التي لم تكن نضرتها الموفورة وسكونها الوقور قد ذهبها بعد بازدهام وسائل النقل الحديثة والمدنية الصاخبة . فلم يكن غريباً إذن أن يطبع كل ذلك نفس أناتول فرانس بما عرف عنه من حب الآثار والحنين إلى الماضي السحيق فانكب منذ صغره على دراسة آداب الإغريق وعلمهم ونقشت في ذهنه المتفتح آراء فلاسفتهم سواء منهم أهل الجسد مثل هوميروس وصفوقليس وثيوقريطس أو أهل المجون مثل أبيقور ، ولقد تأثر فرانس أيضاً بالآداب اللاتينية وإن كان تأثره بمظاهر الحياة أكثر من تأثره بأفكار الكتاب ، كذلك كان لفلاسفة القرن الثامن عشر وعلى رأسهم فولتير أثر كبير في تفكيره ، ولا يجب أن ننسى أيضاً ما كان بين أناتول فرانس ومفكرى القرن التاسع عشر مثل رومانو وشوبنهاور ودارون من التجاوب الروحي والفكري .

من ذلك نرى أن أناتول فرانس قد جمع في عقله عصير تفكير الفلاسفة القدماء والمحدثين وتأثر بهم جميعاً وظهر ذلك واضحاً في كتبه حتى أنه يؤثر عنه قوله (لست أعثر على شيء جديد إلا في كتاب قديم) .

إن فن أناتول فرانس ما هو إلا صورة من نفسه فالشخصيات التي رسمها في كتبه تكاد تكون كلها شخصيات واقعية خالطها

وعاشرها ، كذلك الآراء التي سردها على لسان أبطاله فهي فيض
نفسه وخلاصة تفكيره ودراسته وما وصل إليه فهمه للحياة والناس .
كان أناتول فرانس سطحي النظرة الى الحياة ولعل هذا هو
السبب في خلو أفكاره من العمق الفلسفي ، فهو لم يحاول أن يتغلغل
إلى أعماق عوالم بجهلها ليكشف عن أسرارها ثم يصبها في فنه ، بل
كان ينظر إلى الحياة نظرة متفرج كأنه قائد يجلس على ربوة عالية
يشرف من فوقها على معركة الحياة وهو قابع مستريح . واقد شرح
أناتول فرانس فلسفته في ذلك فقال (لقد كنت دائما ميالا في كل
وقت إلى النظر إلى الحياة كما ينظر الإنسان إلى منظر من المناظر
الطبيعية . فلم أكن يوما من الأيام ملاحظا مدققا لأن الملاحظة
لا بد لها من طريقة توجهها وأنا ليس لي طريقة من الطرق . إن
الملاحظ المدقق يقود عينيه ويوجهها الوجهة التي يريد ، أما
المتفرج فهو يستسلم لعينيه قانعا بما تراه . لقد ولدت متفرجا
وسأحافظ طول حياتي — كما أعتقد — على السذاجة العظمى التي
تميز أطفال باريس ، تلك السذاجة التي تجعلهم يحبون كل شيء
والتي يحافظون عليها مهما تقدمت بهم السنون)

والواقع الذي لا سبيل إلى إنكاره أن أناتول فرانس قد جمع
في نفسه سجايا المتكبر المغرور ، ولقد ساعده على ذلك علمه الواسع
وثقافته المترامية المستمدة من الثقافة الاغريقية ، فأصبح ينظر

إلى الجيل الذى نعيش فيه كما ينظر آباؤنا وأجدادنا إلينا . إنهم ينظرون إلينا بعيون ملؤها الإشفاق والثناء كما أننا مهما قلنا من سعادة متصورة أو علم نزهو به وهو فى نظرهم قشور لا يمكن أن نبلغ ما بلغوا من سعادة ولا يمكن أن تحوى عقولنا ما حوته عقولهم من معارف ! تلك كانت نفسية أناتول فرانس وكأنه كان يقصد نفسه بقوله (متى توصل الإنسان إلى فهم كل شيء لم يرد شيئاً) . لذا كان أناتول فرانس يترفع عن الاهتمام بما خفى عليه من الأمور . كان كبرياؤه العجيب يدفعه إلى الإيمان بأن كل ما يحمله لا يستحق أن يعرف ! ولذا لم يكلف نفسه عبء التغلغل إلى صميم الأشياء لكي يصل إل فهم الحياة والناس كما يجب . وكيف يكلف نفسه وهو الذى يقول (إن علم الحياة الحقيقى هو احتقار كريم للناس أجمعين) .

لقد فرض أناتول فرانس الشر فى كل شيء وكان يجد العزاء فى أحضان اللذات ينتهبها انتهاباً ، وكان إيمانه بمذهب إبيقور فى التمتع بالحياة بأكبر لذة مستطاعة إنما وصل إليه بعد تفكير هادى رزين . ولقد بلغ به حبه للذة لمجرد اللذة أن أنكر الخيرة (التى لم أشعر بها قط طول حياتى) كما قال . كما أنكر الحب العظيم واعتبر علاقة الرجل بالمرأة لا تخرج عن (مهمة جسدية) .

كان تفكير أناتول فرانس يدور حول أمرين : الأول (الشك) Scepticism والثاني (الاشتراكية) ، والأمر الأول يحدد نفسيته العامة ورأيه في الأديان ، أما الأمر الثاني فيبين فكرته السياسية والاجتماعية .

كان أناتول فرانس يهزأ بكل رأى ويسخر من كل فكرة لجميع الآراء والنظريات في نظره سخافات تتناقض بين جيل وجيل كلما تغير الزمن وتغير مبدعوها . وأى سخرية أشد من تلك التى جعلته يقول على لسان أحد أبطال قصة (رغبات چان سرفيان) هذا القول (إن رأى العالم أجمع لا يستحق التضحية برغبة واحدة من رغباتنا) . فأنت ترى أن أناتول فرانس كان ينظر إلى العالم نظرة متشكك ثائر ساخر من كل ما يراه هازئ بكل من حوله حتى دفعه ذلك إلى القول (كل قاعدة بحثت فى أصلها وجدت تحتها شيئاً ولم يطل الأمر حتى علمت أنها لم تكن قاعدة) وفى (حديقة إبيقور) يقول (كلما فكرت فى الحياة الإنسانية زاد اعتقادى أن السخرية والشفقة هما الوسيطتان للنظر إليها والحكم عليها ، إذ أن السخرية والشفقة ناصحان رفيقان ، فالسخرية تحبب إلينا الحياة والشفقة تجعلها مقدسة لدينا . والسخرية التى أعنيها ليست السخرية القاسية المريرة . إنها لا تسخر من الحب ولا من القلب النبيل ، إنها السخرية الهادئة السكينة . فالابتسام الساخرة تسكن سورة

الغضب وهى التى تعلمنا التهمك بالأشرار والحقى وبدونها نضعف .
ويتسلط علينا الحقد والضغينة) .

ولقد أراد أنا تول فرانس أن يرسم نفسه فى كتابه (آراء
چيروم كوانيار) فى مقدمة الكتاب تراه يحلل شخصية أچيروم
فيصفه بأنه (ذو فكر ثاقب وبصيرة واسعة) هما فى نظر ناتول
فرانس ثمرة (نوع من الشك المستفيض) وچيروم هذا (فيلسوف
ومسيحى) تأثر بإثنين كان لهما الأثر الأكبر فى تفكيره . . الأول
إبيقور الذى اكتسب منه انطلاق الرأى وحرية الفكر، والثانى
سان فرانسوا داسيز الذى أخذ منه بساطة النفس والبعد عن
التكلف المزدول . والقارىء لكتاب (آراء چيروم كوانيار) لا يلبث
أن يحس بذلك الجموح الذى يغمر آراء چيروم وبتلك الروح
الماجنة الساخرة التى تجعله يعصف بالدين والأخلاق والتشريع
والفكر الإنسانى وكل ما اصطلاح على تمجيده وتقديسه . وحتى
العقل الذى طالما مجده لم يسلم من مهاجمته وسخريته إذ يقول فى
نهاية هذا الكتاب (إذا أردنا أن نخدم الناس فيجب أن ننبد كل
منطق وتفكير ونلقى به كما نلقى بأثاث يضايقنا . يجب أن نظير على
أجنحة العاطفة والحمية أما التفكير والتمعن فلا . إن الإنسان إذا
فكر فإنه لن يتقدم مطلقا تقدا محسوسا) !

ولقد كان طبيعيا أن يؤدى شك أنا تول فرانس إلى عدم الإيمان

بالله فقد كان ماديا عنيذا وكان نقده للكنيسة ورجاها لأمثال
 له إذ كان يعتقد أنها العدو اللدود لكل فكر حر ورأى مستنير .
 ولقد لخص أناتول فرانس كل آرائه في الدين في كتابه
 (أحاديث عن وجود الله) Entretiens sur l'existence de Dieu
 الذي كتبه في آخر حياته وانتهى منه قبل موته بشهرين وسلبه إلى
 صديقه الكاتب ميشيل كورداي وعهد إليه بنشره فظهر بعد موته بعام .
 كان هذا الكتاب آخر ما خطته يد أناتول فرانس في عالم
 التأليف وهو كتاب يفيض بالجرأة والتموح ففيه يقول (نعم أنتي
 بالتأكيد ملحد . لقد فكرت وكل من وصل إلى قدر معين من
 الذكاء لا يستطيع ان يكون غير ذلك . إني لا أبغي شيئا من وراء
 إعلان الحادي وكل ما أريد قوله هو أنه حتى في الجهود التي
 كان الدين مسيطرأ فيها على كل شيء كان هناك عدد من
 الكافرين أكثر من عددهم الآن وكل ما هنالك أنهم كانوا
 عاجزين عن إظهار ما يبطنون) . والدين في رأي فرانس حدث لا بد
 منه في المجتمع الحاضر (فالماؤن المتدين هو الشخص الغارق في
 الخطيئة الذي يأمل بتدينه الصفح والغفران أو المعذب البائس الذي
 فاته نعيم الدنيا فالتس العزاء بتصور نعيم الآخرة) . ثم انظر كيف
 يجد أناتول فرانس في الألحاد والكفر نعيما نفسيا لا يقبل التنازل
 عنه حين يقول (إن الحزن الفلسفي قد فسر نفسه أكثر من مرة

تفسيراً رائعاً مكتئباً . فكما أن المؤمنين الذين وصلوا إلى أقصى حد من الجمال المعنوي يتذوقون سعادة الاستسلام والخضوع ، كذلك العالم الذي اقتنع بأن كل ما يحيط بنا ما هو إلا كذب وخداع تسكره تلك الحسرة الفلسفية وينسى نفسه بين لذات يأس هادىء . إن الذين يتذوقون جمال ذلك الهم الدفين لا يقبلون أن يستبدلوه بالمسرات الجامعة والأمانى الوهمية التي تلازم رجل الشارع) .

رأينا أن الشك الساخر بالحياة والمجتمع والناس أجمعين هو الظاهرة الطاغية على فن أناطول فرانس فإذا أردت أن تفتش من خلال عباراته عن مبعث هذا الشك المستفيض والسخرية المريرة وجدتهما ترجعان إلى خيبة أمله في النفس الإنسانية والفكر الإنساني ، فنحن كما كنا منذ عشرات القرون لا نزال نغمس في حمأة الرذائل والنقائص الأخلاقية والفكرية . فإذا أردت أن تعرف بعد ذلك السبب الذي إليه يرجع أناطول فرانس كل هذه الرذائل والنقائص وجدته يرجعها إلى المال .

فالمال . المال عند أناطول فرانس هو الأساس الذي قامت عليه دعامة الرذائل الإنسانية . لذلك نراه رغم استهتاره بكل شيء ونظراته المتشائمة اليائسة كانت تمر عليه بين حين وحين بسحات مضيئة من الأمل العريض في مستقبل البشرية . فقد كان يعتقد أن شيئاً واحداً لو تحقق لأنارت العالم السعادة الخالدة والهناء العميمة . ذلك الشيء هو تحطيم سلطة المال وتغيير

النظام الاجتماعي الذي نعيش الآن في ذيله ليحل محله نظام اشتراكي ينشر العدالة الاقتصادية بين الناس ويمحو من الوجود ظلم الغنى وعبودية الفقير ، ذلك أن (الأخاء بين الناس — كما يقول — هو النتيجة المحتمة للاشتراكية) . وهو يقول أيضاً (إن السلام العالمي سوف يتحقق يوماً من الأيام ، لا لأن الناس سوف يصبحون خيراً مما هم عليه الآن — فليس من السهل التعلق بهذا الأمل — بل لأن نظاماً جديداً للأشياء أو علماً جديداً وضروريات اقتصادية جديدة سوف تفرض عليهم حالة الهدوء والطمأنينة كما كانت تفرض عليهم شروط الحياة في الماضي أن يعيشوا في حالة حرب دائمة) . وكان أنا تول فرانس يرى أن اتحاد الطبقات العاملة من الوسائل الأكيدة لحفظ السلام العالمي وكان يهزأ من القول بأن الوطنية تحتم على الفرد خوض الحرب ، وكثيراً ما كان يكرر هذه العبارة (يظن البعض أن المرء يموت في الحرب من أجل الوطن . كلا إنه يموت من أجل أعصاب المصانع) .

على أن أنا تول فرانس رغم دعوته الاشتراكية وما يبدو فيها من نزعة إنسانية عظيمة كان لا يؤمن بسيادة الجماهير وبالتالي كان لا يؤمن بالديموقراطية ، ولذا هاجمه النقاد واتهموه بالتذبذب والتجرد من أولى صفات الأديب العظيم والتعلق بمثال إنساني أعلى ، واعتبروا اشتراكيته ودفاعه عن الفقراء ومهاجمته لسلطان المال

والأغنياء نوعاً من الدجل الفكرى الذى اتخذه سلباً لبلوغ قمة
المجد الأدبى . على أن أناتول فرانس رغم عدم إيمانه
بالديموقراطية ومهاجمته لها كان يفضل النظام الجمهورى على غيره
من نظم الحكم الراهنة (لأنه أخف من غيره إيذاء وأقل ضرراً ،
فهو ليس العدالة ولكنه أقرب إلى البساطة والطبيعة من غيره
من النظم) .

ويفسر إميل فاجيه كره أناتول فرانس لحركات الجماهير وحكمهم
بأن فرانس كان كاستاذة فولتير شديد الكره للأديان وما يتخذ
صورتها كالثورات العنيفة . ذلك أن الجماهير التى عض أحشاءها
الجوع ومزج كرامتها بالثرى جهل الحكام الظالمين ، هذه الجماهير
حين تنفجر أنفاسها المخنوقة فى ثورة تأكل فى طريقها الأخضر
واليابس نراها تتخذ مثل الثورة الأعلى ديناً تمجده كسائر الأديان
فتعصب له وترتكب فى سبيله وبنفس الروح نفس الجرائم والآثام
التي يرتكبها رجال الدين الغاشمون ضد الخارجين عليهم ، وقد أظهر
أناتول فرانس ذلك فى قصته (الآلهة ظمأى) .

ورغم التناقض الذى نراه فى كثير من جوانب تفكير أناتول
فرانس فإن الذى لا ريب فيه أنه كانت تجرى فى دمائه روح العدل
والمساواة وكان قلبه الكبير يفيض بالرحمة ويرفع عن الصغائر .
وإذا كان همه طول حياته السخرية والتعالى فهى سخرية الأب

الرحيم والمفكر الواسع النفس الخالص الوفاء . ولقد بقي حتى آخر
نفسه من حياته يردد قوله (إن الاشتراكية هي ضمير العالم وأن
النزاع بين الطبقات سوف لا ينتهي إلا باختفاء هذه الطبقات) .

• • •

وإذا كان النقاد قد اختلفوا في تقدير قيمة أعمال أناتول
فرانس وتفكيره فإن سوادهم متفق أنه خير من كتب الفرنسية
منذ الثورة الفرنسية إلى الآن ، بل منهم من يعتقد أن ما يمتاز به
أسلوبه من الرقة والسهولة يجعله لا نظير له في الآداب الفرنسية
جميعاً .

لقد كان أناتول فرانس هو المنقذ الأكبر للغة الفرنسية مما انتابها من
التدهور والانحطاط بعد الثورة الكبرى . ورغم أنه كان في تفكيره
نائراً فنبذ الأفكار جميعاً إلا أنه كان بالعكس من جهة اللغة محافظاً
فأعاد لها مجدها القديم مضيفاً إلى ذلك عبقريته الخاصة في حسن
الصياغة والدقة النادرة في الإحساس بجمال الألفاظ والتعابير .

ولقد كانت سهولة أسلوبه وابتعاده عن التكلف هي ميزته
الكبرى ، وكان يفتخر قائلاً (إن كمية ألفاظي اللغوية محدودة
فقيرة) وكان إيمانه بوجوب السهولة المطلقة في الأساليب تدفعه
للاعتقاد — بخلاف الكثيرين — أن الصحافة تساعد على تقدم

أسلوب الكتابة لأنها بإرغامها الكاتب الصحفي على الإسراع في الكتابة تحول بينه وبين التكلف والافتعال فيخرج أسلوبه طبيعياً مستقيماً سلساً .

لقد كان أسلوب أناتول فرانس — كما يقول الناقد پول سوداي — فريداً لا يمكن تقليده . ولقد صدق قول لومتر في قوله (لقد كان أسلوب أناتول فرانس سبيكة من المعادن الثمينة ففيه ترى أساليب راسين وفولتير وقلوبير ورينان ... وأسلوب أناتول فرانس دائماً) .

